الفصل الخامس

من دلائل الإخلاص

للإخلاص دلائل وعلامات كثيرة تظهر فى حياة المخلص وسلوكه ، ونظرته إلى نفسه وإلى الناس منها :

● **الخوف من الشهرة :**

١ - أن يخاف من الشهرة وانتشار الصيت على نفسه ودينه ، وخصوصاً إذا كان من أصحاب المواهب ، وأن يوقن بأن القبول عند الله بالسرائر لا بالمظاهر ، وأن إنساناً لو طبقت شهرته الآفاق ، وهو مدخول النية ، لم يغن عنه الناس من الله شيئاً .

ولهذا كان الزهد فى الجاه والظهور والشهرة والأضواء أعظم من الزهد فى المال ، وفى شهوة البطن والفَرْج ، يقول الإمام ابن شهاب الزهرى : ما رأينا الزهد فى شىء أقل منه فى الرياسة . ترى الرجل يزهد فى المطعم والمشرب والمال ، فإذا نوزع الرياسة حامى إليها وعادى .

وهذا ما جعل كثيراً من علماء السَّلَف وصالحيهم يخافون على قلوبهم من فتنة الشهرة ، وسحر الجاه والصيت ، ويحذِّرون من ذلك تلاميذهم ، وقد روى المصنَّفون فى السلوك من ذلك أشياء كثيرة ، مثل أبى القاسم القشيرى فى « الرسالة » ، وأبى طالب المكى فى « قوت القلوب » ، والغزالى فى « الإحياء » [١] .

---

(١) انظر : ما ذكره الغزالى فى « ذم الشهرة وانتشار الصيت » ، و« بيان فضيلة الخمول » من كتاب « ذم الجاه والرياء » من « الإحياء » ، وشرح العلامة مرتضى الزبيدى على « الإحياء » (٨/ ٢٣٢ - ٢٣٨) طبع دار الفكر ، بيروت .

من ذلك ما قاله الزاهد الشهير إبراهيم بن أدهم : ما صدّق الله مَن أحب الشهرة !

وقال : ما قرَّت عينى يوماً فى الدنيا قط ، إلا مرة واحدة : بِتُّ ليلة فى بعض مساجد قرى الشام ، وكان بى البَطن (١) ، فجاء المؤذن ، وجرَّنى برجلى حتى أخرجنى من المسجد .

وإنما قرَّت عينه ، لأن الرجل لم يعرفه ، ولذا عامله بعنف وجرَّه من رجله كأنه مجرم .

وهو الذى ترك الإمارة والثروة لله تعالى ، وإنما لم يخرج هو ؛ لأنه كان عليلاً أقعده المرض .

وقال الزاهد المعروف بشر الحافى : ما أعرف رجلاً أحب أن يُعرف إلا ذهب دينه وافتضح .

وقال أيضاً : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس .

وصحب رجل ابن محيريز فى سفر ، فلما فارقه قال : أوصنى . فقال : إن استطعت أن تعرِف ولا تُعرَف ، وتمشى ولا يُمشَى إليك ، وتَسأل ولا تُسأل ، فافعل .

وقال أيوب السختيانى : ما صدق الله عبد ، إلا سرَّه ألا يُشعَر بمكانه .

وكان خالد بن معدان الثقة العابد إذا كثرت حلقته قام مخافة الشهرة .

وقال سليم بن حنظلة : بينما نحن حول أُبَىّ بن كعب نمشى خلفه ، إذا رآه عمر ، فعلاه بالدرة فقال : انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع ؟ فقال عمر : إن هذه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع ! وهى لفتة عمرية نفسيّة إلى ما قد تحدثه هذه المظاهر البسيطة فى بدايتها من عواقب وآثار بعيدة الغور فى نفسيّة الجماهير التابعة ، والقادة المتبوعين .

---

(١) داء فى البطن لعله مغص أو إسهال أو نحو ذلك .

وعن الحسن قال : خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس ، فالتفت إليهم فقال : علام تتبعونى ؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان !

وقال الحسن : إن خفق النعال حول الرجال قلَّما تثبت عليه قلوب الحمقى !

وخرج الحسن ذات يوم فاتبعه قوم فقال : هل لكم من حاجة ؟ وإلا فما عسى أن يبقى هذا من قلب المؤمن ؟ . .

وخرج أيوب السختيانى فى سفر ، فشيَّعه ناس كثيرون فقال : لولا أنى أعلم أن الله يعلم من قلبى أنى لهذا كاره ، لخشيتُ المقت من الله عَزَّ وجَلَّ .

وقال ابن مسعود : كونوا ينابيع العلم ، مصابيح الهدى ، أحلاس البيوت ، سُرُج الليل ، جُدُد القلوب ، خلقان الثياب ، تُعرَفون فى أهل السماء ، وتَخْفَون فى أهل الأَرْض .

وقال الفضيل بن عياض : إن قدرتَ على ألَّا تُعرف فافعل ، وما عليك ألا تُعرف ؟ . . وما عليك أن يُثنَى عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت محموداً عند الله تعالى ؟

لا يُفهم من هذه الآثار الدعوة إلى الانطوانية والعزلة ، فإن الذين رويت عنهم إنما هم أئمة ودعاة مصلحون ، كان لهم آثار طيبة فى دعوة المجتمع وتوجيهه وإصلاحه .

لكن الذى يُفهم من مجموعها هو اليقظة لشهوات النفس الخفية ، والحذر من الكُوَى والمنافذ التى يتسلل منها الشيطان إلى قلب الإنسان ، إذا سُلِّطت عليه الأضواء ، وأحاط به الأتباع والأشياع ، وأشير إليه بالبنان .

والشهرة فى ذاتها ليست مذمومة ، فليس هناك أشهر من الأنبياء والخلفاء الراشدين ، والأئمة المجتهدين ، ولكن المذموم هو طلب الشهرة والزعامة

والجاه ، والحرص عليها ، فأما وجودها من غير هذا التكلف والحرص فلا شيء فيه ، وإن كان فيه - كما قال الغزالى - فتنة على الضعفاء دون الأقوياء .

وفى هذا المعنى جاء حديثُ أبى ذرٍّ عن النَّبىِّ ﷺ ، أنَّهُ سُئِلَ عن الرَّجُل يعملُ العملَ لله منَ الخَير ويحمَدُه النَّاسُ عليه ، فقال : « تلكَ عاجلُ بُشرى المؤمن » (١) خرَّجه مسلم ، وخرَّجه ابن ماجه ، وعندَه : « الرَّجُلُ يعمَلُ العملَ لله فيحبُّه النَّاسُ عليه » ، وبهذا المعنى فسَّره الإمامُ أحمدُ ، وإسحاقُ بن راهويه ، وابنُ جريرٍ الطَّبرىّ وغيرهم .

وكذلك الحديثُ الذى خرَّجه الترمذىُّ وابنُ ماجه منْ حديث أبى هريرة أنَّ رجُلاً قال : يا رسول الله ؛ الرَّجُلُ يعملُ العملَ ، فيُسِرُّهُ ، فإذا اطُّلع عليه ، أعجَبَهُ ، فقال : « له أجران : أجرُ السِّرِّ ، وأجر العلانيَةِ » (٢) .

* *

● **اتهام النفس :**

٢ - إن المخلص يتهم نفسه دائماً بالتفريط فى جنب الله ، والتقصير فى أداء الواجبات ، ولا يسيطر على قلبه الغرور بالعمل والإعجاب بالنفس ، بل هو دائماً يخشى من سيئاته ألا تُغفر ، ويخاف على حسناته ألا تُقبل ، وقد بكى بعض الصالحين فى مرضه بكاءً شديداً ، فقال بعض عُوَّاده : كيف تبكى ؟ وأنت قد صُمتَ وقُمتَ ، وجاهدتَ وتصدَّقتَ ، وحججتَ واعتمرتَ ،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٤٢) ، وابن ماجه (٤٢٢٥) ، وأحمد (٥/ ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٨) ، وصحَّحه ابن حبان (٣٦٦) ، (٣٦٧) .

(٢) رواه الترمذى (٢٣٨٤) ، وابن ماجه (٤٢٢٦) ، وصحَّحه ابن حبان (٣٧٥) مع أن فيه حبيب بن أبى ثابت ، وهو مدلِّس ، وقد عنعن .

وعلَّمت وذكَّرت ؟ . . فقال : وما يدريني أن شيئاً منها في ميزاني ؟ وأنها مقبولة عند ربي ؟ والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ومنبع التقوى إنما هو القلب ، ولذا أضافها القرآن إليه فقال : ﴿ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « التقوى ههنا » . . وكررها ثلاثاً ، وأشار إلى صدره (٣) .

وقد سألت السيدة عائشة رسول الله ﷺ عمن يصدق عليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ (٤) . أَهُمُ الذين يسرقون ويزنون ويشربون الخمر وهم يخافون الله عَزَّ وجَلَّ ؟ فقال : « لا يا ابنة الصِّدِّيق ، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون ، وهم يخافون ألا يُتقبل منهم : ﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ » (٥) (رواه أحمد وغيره) .

والمخلص يخاف أبداً من تسلل الرياء إلى نفسه وهو لا يشعر ، ولهذا سمى « الشهوة الخفية » التي تدسس إلى نفس السالك للطريق دون أن ينتبه لها .

وفي هذا يقول ابن عطاء الله محذِّراً ومنبهاً : « حظ النفس في المعصية ظاهر جَلي ، وحظها في الطاعة باطن خفي ، ومداواة ما يخفى صعب علاجه ، ربما دخل الرياء عليك من حيث لا ينظر الخلق إليك . استشرافك أن يعلم الخلق بخصوصيتك ، دليل على عدم صدقك في عبوديتك . غَيِّب نظر الخلق إليك بنظر الله إليك ، وغب عن وجود إقبالهم عليك بشهود إقباله عليك » !

* *

---

(١) المائدة : ٢٧ (٢) الحج : ٣٢

(٣) رواه مسلم من حديث ابن عمر في البر والصلة من صحيحه ، الحديث (٢٥٦٤) .

(٤) المؤمنون : ٦٠ (٥) المؤمنون : ٦١

● العمل فى صمت بعيداً عن الأضواء :

٣ - أن يكون العمل الصامت أحب إليه من العمل الذى يحفه ضجيج الإعلان وطنين الشهرة . إنه يُفضِّل أن يكون أبداً « الجندى المجهول » الذى يبذل ولا يُعرف ، ويضحى ولا يُذكر ، ويؤثر أن يكون من الجماعة كالجذر من الشجرة : به قوامها وحياتها ، ولكنه مستور فى باطن الأرض لا تراه العيون ، أو كالأساس من البناء ، لولا ما ارتفع جدار ، ولا أظل سقف ، ولا قام بيت ، ولكن أحداً لا يراه كما يرى الجدران والشرفات ، قال شوقى :

خفى الأساس عن العيون تواضعاً من بعد ما رفع البناء مشيداً !

وقد مرَّ بنا حديث معاذ : « إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء ، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا ، وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل غبراء مظلمة » .

* *

● ألا يطلب المدح ولا يغتّر به :

٤ - ومن دلائل الإخلاص : ألا يطلب مدح المادحين ، ولا يحرص عليه ، وإذا مدحه مادح لم يغره ذلك عن حقيقة نفسه التى بين جنبيه ، فهو أدرى بخباياها والتواءاتها ، ممّن يخدعهم بريق الظواهر عن بواطن الضمائر .

وقد قال ابن عطاء الله فى « حكمه » : الناس يمدحونك لما يظنونه فيك ، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها . أجهل الناس مَن ترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس !

ويروى عن علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا مُدِح يقول : اللَّهُمَّ لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى خيراً مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون .

وكذلك قال ابن مسعود رضى الله عنه لمن تبعوه وأحاطوا به : لو علمتم ما أغلق عليه بابى ما اتبعنى منكم رجلان ! وهو من أعلام الصحابة ، وأئمة الهدى ، ومصابيح الإسلام .

وأثنى جماعة على أحد الربَّانيين ، فقال معتذراً إلى ربه : اللَّهُمَّ إن هؤلاء لا يعرفوننى ، وأنت وحدك تعرفنى !

وقال أحد الصالحين يناجى ربه ، وقد أثنى عليه بعض الناس ، وأضفوْا عليه ما أضفوا من خصال الخير ، ومكارم الأخلاق :

يظنون بى خيراً ، وما بىّ من خير ... ولكـننى عبـد ظلـــوم كما تدرى
سـترتَ عـيوبى كلَّـها عن عيونهم ... وألبسـتنى ثوباً جميلاً من السِّـتر
فأمســوْا يحبونى ، وما أنا بالذى ... يُحَبّ ، ولكن شـبّهونى بالغيـر
فلا تفضحنّى فى القيامة بينهـــم ... وكن لىَ يا مولاى فى موقف الحشر

لقد أشار هذا الشاعر الصالح إلى معنى لطيف مهم ، وهو جميل ستر الله تعالى على عباده ، فكم من عيوب خفية سترها الله تعالى بستره عن أعين الخلق ، لو كشفها الله - جَلَّ جلاله - عن عبده المستور ، لنزلت رتبته ، وربما سقطت منزلته ، ولكن فضل الله يأبى إلا أن يستر ضعف عباده ، منَّة منه وكرماً .

وفى هذا يقول ابن عطاء الله : مَن أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالفضل لمن أكرمك وسترك ، ليس لمن مدحك وشكرك .

ويقول أبو العتاهية :

أحســـن الله بنا ... أنّ الخطايا لا تفوح !
فإذا المســتور منـا ... بين جنبيه فضوح !

* *

● ألا يبخل بمدح مَن يستحق المدح :

٥ - ومن دلائل الإخلاص : ألا يبخل بمدح مَن يستحق المدح ، والإشادة بكل مَن هو أهل للإشادة به ، فهناك آفتان خطيرتان : الأولى : توجيه المدح والثناء لمن لا يستحقه ، والثانية : الضن بالمدح عمن يستحقه .

وقد مدح النبى ﷺ جماعة من أصحابه ، مُنوِّهاً بفضائلهم ومناقبهم ، كقوله عن أبى بكر : « لو كنتُ متخذاً خليلاً غير ربِّى لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ، ولكن أخى وصاحبى » .

وقوله لعمر : « لو سلكتَ فجاً لسلك الشيطان فجاً آخر » .

وقوله عن عثمان : « إنه رجل تستحى منه الملائكة » .

وقال لعلىّ : « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » .

وقال عن خالد : « سيف من سيوف الله » .

وقال عن أبى عبيدة : « أمين هذه الأمة » .

وكثيرون نوَّه بهم صلى الله عليه وسلم ، وأبرز ما لهم من مواهب ومَلَكات ، وبعضهم كانوا شباباً ، مثل أُسامة بن زيد الذى ولاه قيادة جيش فيه بعض كبار الصحابة ، وعتاب بن أسيد ، الذى استخلفه على مكة وهو ابن العشرين ، ومعاذ بن جبل الذى أرسله إلى اليمن وهو شاب ، وبعضهم قدَّمه على السابقين فى الإسلام ، لمزية عنده ، كما فعل مع خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص .

وربما كان حجز المدح عن أهله ، لهوى خفى فى نفسه ، أو حسد متمكن ، فهو يخاف مزاحمته فى مركزه ، أو منافسته فى منزلته ، وهو لا يملك أن يطلق لسانه بذمه ، فعلى الأقل يسكت عن مدحه .

وقد رأينا عمر الفاروق ، يطلب رأى ابن عباس فى بعض الأُمور ، وهو شاب صغير السن ، ويقول له أمام كبار الصحابة : تكلم يا ابن عباس ولا يمنعك حداثة سنك .

* *

● استواء العمل فى القيادة والجندية :

٦ - ومن دلائل الإخلاص : أن المخلص لله يستوى عنده أن يعمل قائداً ، وأن يعمل جندياً فى آخر الصفوف ، ما دام فى كلا الموقعين ارضاءٌ لله تعالى ، فلا يستولى على قلبه حب الظهور ، وتصدّر الصفوف ، والرغبة فى الرياسة والزعامة ، واعتلاء المراكز القيادية ، بل ربما آثر الجندية خشية التفريط فى واجبات القيادة وتبعاتها ، وهو على كل حال لا يحرص عليها ولا يطلبها لنفسه ، ولكن إذا حُمِّلها حملها ، واستعان بالله على القيام بحقها ، وقد وصف الرسول ﷺ هذا الصنف من الناس ، فقال : « طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الساقة كان فى الساقة ، وإن كان فى الحراسة كان فى الحراسة » (١) .

ورضىَ الله عن خالد بن الوليد الذى عُزِل عن إمارة الجيش ، وهو القائد المظفر ، فعمل تحت قيادة أبى عبيدة دون تململ ولا تذمر ، وكان نِعْم المشير والمعين .

كما حذَّر الرسول الكريم من سؤال الإمارة وطلبها .

فقد جاء فى الصحيح أن النبى ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : « لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها بغير سؤال أعنت عليها ، وإن سألتها وكلتَ إليها » (٢) .

* *

● الاحتفال برضا الله لا الناس :

٧ - ألا يبالى برضا الناس إذا كان من ورائه سخط الله عزّ وجلّ ، فإن الناس يختلفون أشد الاختلاف فى أذواقهم ومواقفهم ، وتفكيرهم ومبادئهم ، وأهدافهم وطرائقهم ، ومحاولة إرضائهم غاية لا تُدرك ، ومطلب لا يُنال .

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة - صحيح الجامع الصغير (٢٩٦٢)

(٢) متفق عليه - المصدر نفسه (٧٩٤١) .

وفى هذا قال الشاعر :

ومَن فى الناس يُرضى كل نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟

وقال الآخر :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً علىّ لئامهـــا !

ولو أرضى اللئام لأغضب - بلا ريب - الكرام .

والمخلص قد أراح نفسه من عناء هذا كله ، وكان شعاره مع الله :

فليتـــك تحـلو والحيـــاة مريرة وليتك ترضى والأنـــام غضـــاب !

وليت الذى بينى وبينك عامـر وبينى وبين العالَـــــمين خـراب !

إذا صحَّ منك الود ، فالكل هيّن وكل الذى فوق التـــراب تراب !

* *

● جعل الرضا والسخط لله لا للنفس :

٨ - أن يكون حبه وبغضه ، وعطاؤه ومنعه ، ورضاه وغضبه ، لله ولدينه ، لا لنفسه ومنافعه . . فلا يكون كأولئك النفعيين من المنافقين الذين ذمَّهم الله فى كتابه ، وقال فيهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (١) .

لقد ترى بعض العاملين فى ميدان الدعوة إذا مسَّه أحد إخوانه بكلمة تؤذيه أو جرح شعوره بتصرف يسوءه فى نفسه ، أو فى أحد من خاصته وذويه ، سرعان ما يغضب ويتبرم ، ويدع العمل والحركة ، ويعتزل ميدان الجهاد والدعوة .

والإخلاص للغاية يقتضيه أن يصر على دعوته ، ويثبت على اتجاهه ، مهما

---

(١) التوبة : ٥٨

أخطأ في حقه المخطئون ، وقصر المقصرون ، أو أسرف المسرفون ، لأنه يعمل لله لا لنفسه ولا لذويه ، ولا لفلان أو علان من الناس .

ودعوة الله ليست حكراً على أحد وملكاً له ، إنها دعوة الجميع ، فلا يجوز أن يتخلى عنها مؤمن بها من أجل موقف هذا أو تصرف ذاك .

* *

● **الصبر على طول الطريق :**

٩ - أن لا يحمله طول الطريق ، واستبطاء الثمرة ، وتأخر النجاح ، ومتاعب العمل مع النَّاس المختلفين في أذواقهم وميولهم ، على الكسل والتراخي أو التفلّت ، أو التوقف في منتصف الطريق . إنه لا يعمل للنجاح فحسب ، أو للنصر فقط ، بل لرضا الله وامتثال أمره قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وقد عاش نوح شيخ المرسلين في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، يدعو ويُبلِّغ ولم يؤمن معه إلا قليل ، برغم تفننه في أساليب الدعوة ، وتنويع أوقاتها ، وتغيير صيغها ، كما قال الله تعالى على لسانه : ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِى إِلَّا فِرَاراً * وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا۟ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَاراً ﴾ (١) .

ومع هذا ظلَّ نوح عليه السلام تسعمائة وخمسين عاماً يدعو قومه ، تعاقب عليه نحو أربعين جيلاً ، وهم عنه معرضون ، وهو عليهم حريص .

وحكى القرآن الكريم لنا نموذجاً مؤمناً في سورة البروج ، قدَّموا أرواحهم في سبيل الله ، وصبروا على اصطلاء النار ذات الوقود ، والكفرة الطغاة عليهم شهود ، ولم يبالوا بما أصابهم في سبيل الله ، ولم يقولوا : ماذا يفيد

---

(١) نوح : ٥ - ٧

استشهادنا لدعوتنا ؟ لأن عليهم الثبات والبذل . وعلى الله إنجاح الدعوة ، ومن يدرى لعل دماءهم تكون هى الغذاء لشجرة الإيمان من بعدهم !

إن عمل المخلص أساساً لله عَزَّ وجَلَّ ، فهو ثابت عليه ، مستمر فيه ، أما الثمرة والنتيجة فى الدنيا ، فهو يدعها لله تعالى : يهيئ أسبابها ، ويحدد أجلها ، وما عليه إلا أن يتحرى ويجتهد وسعه ، فإن تحققت فالحمد لله ، وإن تعثَّرت أو تعذَّرت ، فلا حَوْل ولا قُوَّة إلا بالله .

إن الله لا يسأل الناس فى الآخرة : لماذا لم ينتصروا ، ولكن يسألهم : لماذا لم تجاهدوا ؟ ولا يسألهم : لماذا لم تنجحوا ، بل يسألهم : لماذا لم تعملوا ؟!

* *

● الفرح بكل كفاية تبرز :

١٠ - الفرح بكل ذى كفاية يبرز فى صف العاملين ليحمل الراية أو يسهم فى العمل ، وإتاحة الفرصة لكل ذى موهبة أن يأخذ مكانه ، دون تعويق له أو ضيق به ، أو حسد له ، أو ضجر منه . . بل نرى المخلص إذا وجد مَن هو خير منه فى تحمل تبعته ، تنحَّى له راضياً ، وقدَّمه على نفسه طائعاً ، وسعد بأن يأخذ خطوة إلى الخلف .

إن بعض العاملين - وخصوصاً فى الصفوف الأولى - يتشبث بموقعه القيادى ، ويستقتل دونه ، ولا يتنازل عنه بحال ، ويقول : منصب ولانيه الله فلا أدعه ، أو قميص ألبسنيه فلا أنزعه ! وكأنه مُعيَّر من قِبَل السماء ! هذا مع أن الزمن قد تغيَّر ، والقوة قد ضعفت ، ولكل زمن رجاله ، كما لكل مقام مقاله ، وكثيراً ما يُعاب الحكام على تشبثهم بكراسيهم واستماتتهم فى الحفاظ عليها ، بدعوى أنهم الأقدر على تسيير السفينة ، وحمايتها من الرياح الهوج . فلا يجوز أن يتبع دعاة الإسلام فيما ينتقدون به غيرهم ، ويُنكرونه عليهم ، كما لا ينبغى هنا التذرع بمصلحة الدعوة - كما تتذرع الأخرون بمصلحة الوطن

والأُمة - فربما كان ذلك من أحابيل الشيطان ، وسراديبه الملتوية للدخول إلى قلوب العاملين للإسلام ، فإذا هم يسقطون فرائس لحب الذات ، وحب الجاه ، وحب الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يخدمون الدين .

وكم من جماعات وحركات أصابها من الطغيان الخارجى ، أو من التمزق الداخلى ، أو من الفتور والذبول فى الفكر وفى العمل ، وفقدان المبادرة والتجديد ، نتيجة لطامح فرد أو أفراد فيها ، أبوا أن يُخلوا مكانهم لغيرهم ، ناسين أن الأرض تدور ، وأن الفلك يسير ، وأن العالم يتغير ، ولكنهم - وحدهم - لا يدورون مع الأرض ، ولا يسيرون مع الفلك ، ولا يتغيرون مع الزمان والمكان والإنسان !

ومن هؤلاء مَن يحمِّل نفسه من الأعباء والمسؤوليات فوق ما يحتمله كاهله ، وهو فى الواقع يسد الطريق على غيره من المواهب الشابة ، والكفايات الفتية ، التى تستطيع أن تشارك فى حمل الأمانة ، وأن يكون لها نصيبها من بناء المسؤولية ، وإذا كانت الخبرة تنقصهم ، فهم يكسبونها بالممارسة ، وينضجونها بالمعاناة ، وإنما العلم بالتعلم .

* *

● الحرص على العمل الأنفع :

١١ - ومن دلائل الإخلاص : الحرص على العمل الأرضَى لله ، لا الأرضَى للنفس ، فيؤثر المخلص العمل الأكثر نفعاً ، والأعمق أثراً ، وإن لم يكن له فيه هوى ، ولا له فيه لذة ونشوة .

فقد يتلذذ بصيام النافلة ، أو بصلاة الضحى ، ولو شغل هذا الوقت بإصلاح ذات البَيْن لكان أولى . وفى الحديث : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ إصلاح ذات البَيْن ، فإن فساد ذات البَيْن هى الحالقة » [1] .

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (٤٩١٩) والترمذى فى صفة القيامة عن أبى الدرداء (٢٥١١) وقال : حديث صحيح .

وقد يجد متعة نفسية ، ولذّة روحية فى الاعتمار فى كل رمضان ، والحج فى كل موسم ، ولو قيل له : ابذل ما تنفقه لإخوانك الذين يتعرضون للهلاك فى فلسطين أو البوسنة أو كشمير ، لم ينشرح لذلك صدره ، وهو ما اعتبره الغزالى من « باب الغرور » (١) .

وقد ذهب أحد المحسنين من بعض البلاد الغنية إلى بلد إفريقى ليبنى فيه مسجداً ، فلقيه بعض العقلاء من أهل البلد ، واقترحوا عليه أن يرمم عدداً من المساجد القديمة الآيلة للسقوط ، وهى فى مناطق آهلة بالسكان ، ولا يستغنى الناس عنها ، ويمكنه أن يرمم عشرة مساجد قديمة بما ينفقه على بناء مسجد واحد حديث ، ولكنه أبى إلا أن يشيد مسجداً يحمل اسمه الكريم !

* *

● السلامة من آفة العُجْب :

ومن تمام الإخلاص : ألا يفسد العمل بعد تمامه بالإعجاب به ، والاطمئنان إليه ، والزهو به ، وهذا يعميه عما فيه من خلل قد شابه ، أو دخل أصابه ، والشأن فى المؤمن أن يكون بعد أداء العمل خائفاً أن يكون قد قصَّر فيه أو أخلَّ به من حيث يشعر أو لا يشعر ، ولهذا يخشى ألا يُقبل منه ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ومن الكلمات النيِّرة المنسوبة إلى الإمام علىّ كرَّم الله وجهه قوله : سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك !

أخذ هذا المعنى ابن عطاء الله السكندرى فى « حكمه » فقال : ربما فتح الله لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول ، وربما قدَّر عليك المعصية ، فكانت سبباً فى الوصول ، معصية أورثت ذلاً وافتقاراً ، خير من طاعة أورثت عُجْباً واستكباراً !

ومن هنا حذَّر القرآن الكريم من اتباع الصدقة بالمن أو الأذى ، خشية أن يبطلها ويضيع أثرها .

---

(١) انظر : كتابنا « فى فقه الأولويات » ص ١٦ - ١٩ ، وص ١٣٦ ، ١٣٧ ، وص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .
(٢) المائدة : ٢٧

يقول تعالى : ﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى ، وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِى يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً ﴾ (١) .

كما حذَّر الرسول ﷺ من العُجْب وجعله من « المهلكات » ، فروى عنه ابن عمر : « ثلاث مهلكات ، وثلاث منجيات . . . فأما المهلكات ، فشُحٌّ مطاع ، وهوىً متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » (٢) .

وقد حكى لنا القرآن ما حدث للمسلمين فى غزوة حنين ، فقد نصرهم الله فى بدر وهم أذلة ، ونصرهم فى الخندق بعد أن زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وظنوا بالله الظنون ، وزُلْزِلوا زلزالاً شديداً ، ونصرهم فى خيبر وفى فتح مكة ، ولكنهم فى حنين أعجبتهم كثرتهم ، فلم تُغن عنهم شيئاً ، حتى رجعوا إلى الله ، وعرفوا أن النصر من عنده ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . . . . الآية (٣) .

والمؤمن البصير هو الذى يكل أمره كله إلى الله ، فيوقن أن النصر ليس إلا من عنده : ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (٤) ، وأن العز ليس إلا عند بابه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً ﴾ (٥) ، وأن التوفيق إلى الصالحات ليس إلا من فضله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلا بِاللهِ ﴾ (٦) ، والهداية ليست إلا منه : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴾ (٧) .

---

(١) البقرة : ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٠٤٥) .

(٣) التوبة : ٢٥ - ٢٦

(٤) آل عمران : ١٢٦

(٥) فاطر : ١٠

(٦) هود : ٨٨

(٧) الكهف : ١٧

إذا لم يعـــنك الله فيما تريده فليس لمخـلوق إليك سـبيل !

وإن هو لم يرشدك فى كل مسلك ضللتَ ولو أن السماك دلـيل !

* *

● **الحذر من تزكية النفس :**

والقرآن يُحذِّر من تزكية النفس ، بمعنى مدحها والثناء عليها ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ، فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ (١) .

وذمَّ اليهود والنصارى الذين زَكَّوْا أنفسهم ، فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ، بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ (٢) .

وذلك أنهم قالوا ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ (٣) ، وردَّ عليهم بقوله : ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ، وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٤) .

ولا يجوز لمن يعمل الصالحات أن يذكرها بعد الفراغ منها ، إلا تحديثاً بنعمة ربه عليه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (٥) ، أو ليُرغِّب غيره فيقتدى به : « مَن سنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها » (٦) ، أو دفاعاً عن نفسه أمام اتهام أُلصق به وهو منه برئ ، أو لغير ذلك من الأسباب الباعثة ، وهذا مشروع لمن قوى باطنه فى المعرفة بالله ، وعدم الالتفات إلى ما سواه ، وأمن على نفسه من تسلل آفتي العُجْب والرياء . ولم يكن قصده اكتساب محمدة الناس والمنزلة عندهم ، وقلَّ مَن يسلم من ذلك . . والله المستعان .

فليحذر المسلم من إعجابه بنفسه ، وما يقدمه من حسنات وصالحات ،

---

(١) النجم : ٣٢ (٢) النساء : ٤٩ (٣) المائدة ١٨

(٤) المائدة : ١٨ (٥) الضحى : ١١ (٦) رواه مسلم .

واعتقاده أنه وحده المفلح ، وغيره من الخاسرين ، أو أنه وجماعته هم « الفِرقة الناجية » وكل المسلمين من الهالكين ، أو أنهم وحدهم « الطائفة المنصورة » وغيرهم من المخذولين !

إن هذه النظرة إلى النفس هى « العُجْب المهلك » ، وتلك النظرة إلى المسلمين هى « الاحتقار المردى » .

وفى الحديث الصحيح : « إذا قال الرجل : هلك الناس فهو أهلَكُهم » (١) . روى الحديث بضم الكاف وبفتحها ، ومعنى الضم : أنه هو « أهلَكُهم » ، بمعنى أسرعهم وأشدهم هلاكاً ؛ لغروره بنفسه ، وإعجابه بعمله ، واحتقاره لغيره .

ومعنى الرواية بالفتح « أهلَكَهم » : أنه الذى تسبب - هو وأمثاله - فى هلاكهم ، بالاستعلاء عليهم ، وتيئيسهم من روح الله .

قال الإمام النووى : « وهذا النهى لمن قال ذلك ، عُجْباً بنفسه ، وتصاغراً للناس ، وارتفاعاً عليهم ، فهذا هو الحرام . وأما مَن قاله لما يرى فى الناس من نقص فى أمر دينهم ، وقاله تحزناً عليهم ، وعلى الدين ، فلا بأس به . هكذا فسَّره العلماء وفصلوه ، وممن قاله من الأئمة الأعلام : مالك بن أنس ، والخطابى ، والحميدى ، وآخرون » (٢) .

وفى الحديث الصحيح الآخر : « بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » (٣) . . فمن حق المسلم على المسلم : ألَّا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، وكيف يحقر الإنسان أخاه ، وهما فرعان من أصل واحد ؟

* * *

---

(١) رواه مسلم عن أبى هريرة (٢٦٢٣) .

(٢) ذكر ذلك فى « رياض الصالحين » ص ٦٠٣ - طبعة مؤسسة الرسالة .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة (٢٥٦٣) .